

منطق الطير

"تأمل في العجز الفردي والتخاذل الجماعي"

قراءة في كتاب فريد الدين العطار

إعداد

مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية



مدخل للعمل وسياقه التاريخي والفلسفي

تستمد الكلاسيكيات الأدبية قيمتها الخالدة من قدرتها على تجاوز بيئتها الزمانية والمكانية، لتتحدث بصوت حاد ومباشر إلى أزمات الإنسان في كل عصر، وفي هذا الأفق الفكري، ينتمي كتاب "منطق الطير" للشاعر والصيدلاني النيسابوري فريد الدين العطار (ت. 618 هـ / 1221 م) إلى الفئة النادرة من الأعمال الإنسانية التي لا تُقرأ باعتبارها آثاراً تاريخية فقط.

ولد العطار في مدينة نيسابور إحدى أهم الحواضر العلمية والثقافية في خراسان وعمل في بداية حياته ممارساً لمهنة الطب والعطارة، ولم تكن هذه المهنة مجرد مصدر للرزق، بل كانت نافذة حية أتاحت له الاحتكاك اليومي المباشر بشتى طبقات المجتمع من الفقراء والمرضى والمحبطين إلى الميسورين والمتنفذين.

جاء هذا الاحتكاك في سياق تاريخي شديد الاضطراب، حيث كان الشرق الإسلامي يمر في القرن السادس الهجري بتفكك سياسي مريع، وانقسامات داخلية حادة، وهجمات خارجية متلاحقة تكلفت لاحقاً بالاجتياح المغولي الكارثي الذي أودى بحياة العطار نفسه، في هذا الظرف المليء بضياغ البوصلة وانتشار العجز المكتسب، لم يختار العطار كتابة معالجة سياسية مباشرة قد تُصادَر أو تُقمع، بل اختار صياغة منظومة شعرية رمزية تجاوزت (4500) بيت، ليصنع مرآة صافية تواجه الأفراد والمجتمعات بحقيقة ضعفهم الذاتي المصنوع بأيديهم.

ينتمي منطق الطير ظاهرياً إلى أدب الرحلة الصوفية الشائع في التراث الشرقي، لكنه في عمقه الفلسفي يمثل محاكمة أخلاقية لسلوك الجماعة البشرية، إنه نص يرفض تسليم العقل للحظة الهوان، ويعيد طرح تساؤلات جوهرية، منها:

كيف تتحول المعرفة بالمظلمة إلى شلل في الحركة؟

وكيف تُنسج الأعذار الفردية لتبرير التخاذل الجماعي أمام منظومات السيطرة والنفوذ؟

البنية الأدبية وإشكالية الرمز

تتأسس بنية النص على هيكل سردي يتخذ من عالم الحيوان والطيور مسرحاً مجازياً لإسقاط الخصائص النفسية والاجتماعية للبشر، يتكون هذا الهيكل من ثلاث مركبات رئيسية: البحث عن البوصلة، واختبار الطريق عبر الأعذار، ثم الوصول واكتشاف الذات.

تتمثل الرمزية المفتاحية الأولى في طائر الهدد، فلا يقدم العطار الهدد بصورته المجردة، بل يجعله تجسيداً لوعي الناقد والقيادة البصيرة، إنه الطائر الذي يملك الخريطة، والقدرة على الرؤية النافذة في مسافات التيه، لكنه بالدرجة الأولى يمثل ذلك الصوت المزعج الذي يرفض تخدير الضمير، ويصر على مواجهة الأفراد بعيوبهم وحيلهم الدفاعية، والهدد لا يقدم وعوداً وردية حالمة، بل يضع كلفة التغيير واضحة منذ اللحظة الأولى: الطريق طويل، ومحفوف بالمخاطر، ولن ينجو فيه إلا من يتجرد من أثقاله.

في المقابل، يقف رمز السمرغ في نهاية المطاف، والسمرغ طائر أسطوري في الأدب الفارسي القديم، يتسم بالشموخ والقدرة والمنعة، ويقطن خلف الجبال التخيلية، يطرحه الهدد أمام السرب باعتباره الملك والملجأ

والسلطان الذي يملك حقيقة الوجود والكرامة والإنقاذ، غير أن التوظيف الناقد لهذا الرمز لا يتبدى إلا في ختام الملحمة؛ حيث يتضح أن السمرغ ليس كائناً قدسياً معزولاً عن الواقع، بل هو رمز لـ الحقيقة الكامنة والسيادة الذاتية المكتسبة عبر المعاناة والتطهر الجماعي.

إن شعيرة النص لا تعتمد على الغموض المغلق، بل على البلاغة المكشوفة؛ حيث يتوارى كل صنف من الطيور خلف قناع أدبي يمثل نمطاً سلوكياً بشرياً حقيقياً، فالرمز هنا ليس وسيلة للهروب من الرقابة السياسية أو الفكرية، بل هو أداة تحليلية لتفكيك الواقع ومواجهته دون موارد.

التأمل في التكاسل وفقه الأعذار

تبدأ الحبكة بدعوة الهدد لجميع طيور العالم كي تلتئم في مؤتمر جامع، لتضع حداً لحالة الشتات وفقدان البوصلة والبحث عن الحرية، تتفق الطيور في البدء على نبل الغاية وشرف المقصد، لكن المفارقة تنفجر لحظة مطالبة الهدد ببدء الخطوة العملية الأولى، هنا ينكشف ما يمكن تسميته بسيكولوجيا التكاسل، إذ تنكص الطيور على أعقابها، وتبدأ في اختلاق منظومة متكاملة من التبريرات البلاغية التي يطلق عليها العطار فقه الأعذار.

هذا التشريح النفسي ينطبق تماماً على الأفراد والمجتمعات المعاصرة، ويتجلى في النماذج الآتية:

دعوة التغيير والحرية- صدمة الكلفة الميدانية- تفعيل الحيل الدفاعية (فقه الأعذار)

- **البلبل:** (سيكولوجية الترف الشغفي- اللذة والشهوة): يعتذر البلبل بشغفه المفرط بالوردة وصوته الشجي، معلناً أنه لا يستطيع عيش الحياة بعيداً عن أريجها. يمثل البلبل الفرد الغارق في الملاذ العاطفية والشهوات اللحظية أو الترف الثقافي السطحي. إنه الشخص الذي يملك طاقة تعبيرية عالية وفصاحة، لكنه يستغلها لتبرير القعود، متذرعاً بأن رسالته في الحياة هي الاستمتاع بالجمال الجزئي بدلاً من الخوض في معارك التحرر الكبرى.
- **الطاووس:** (سيكولوجية النرجسية والهروب إلى الماضي): يتذرع الطاووس بجمال ريشه الباهر ورغبته الأزلية في العودة إلى جنته المفقودة التي أخرج منها. يُسقط النص عبر هذا الرمز أزمة المجتمعات النرجسية التي تستغرق في التغني بأمجاد أجدادها وتاريخها التليد، وتتخذ من هذا الماضي الحافل مخدر النفس تبرر به عجزها الراهن وشللها الحضاري.
- **البومة:** (سيكولوجية الاعتیاد على الهوان- الخوف والخرائب): تعتذر البومة بعشقها للخرائب والظلمة، خائفةً من الخروج إلى شمس الحرية والنور. يجسد هذا الرمز حالة "العجز المكتسب" (Learned Helplessness)، حيث تألف المجتمعات أو الشرائح المحيطة بيئة الاستبداد والفساد، وتخشى التغيير لأنها استمرت السلامة الزائفة في قاع الهوان، وتعتبر أي تحرك نحو الحرية مخاطرة غير محسوبة.
- **الباز:** (نفاق السلطة- سيكولوجية التعلق بالماديات): تعتذر هذه الطيور بشغفها بجمع الجواهر والتعلق بالقمم والجبال المادية. وهي صورة رمزية للإنسان المحاصر بحسابات الجمع والمكسب المالي السريع،

والذي أصبحت ممتلكاته وحساباته هي التي تملي عليه مواقفه السياسية والأخلاقية، فتكبله وتمنعه من الانحياز للحق.

إن هذه الأعداء متضافرةً تمثل الحيل الدفاعية التي يمارسها العقل البشري لتخدير الضمير؛ فالأفراد لا يعلنون رفضهم للكرامة والحرية جهاراً، بل يحيطون قعودهم بمنطق تبريري يسبغ على العجز لبوس الحكمة والواقعية والمراعاة للظروف.

نظرة سياسية-اجتماعية للتبعية والاستكبار

تتجاوز قراءة العطار الأبعاد الفردية لتصل إلى ذروة نقدية وسياسية عالية حين ينفذ إلى تحليل سيكولوجية التبعية السلطوية، فتتجلى هذه الفكرة في حوار الهدهد مع طائر الباز (الصقر).

يقدم الباز نفسه باعتباره طائراً قوياً، حاد البصر، ويمتلك مهارات استثنائية تجعله مقرباً من بلاط السلاطين والملوك، إذ يتفاخر الباز بأنه يوضع على أيدي السلاطين، ويعيش في كنف كرمهم، ويأكل من فتات موائدهم، ولذلك فهو يرى أن الذهاب في رحلة البحث عن السمرغ أمراً لا يعنيه؛ إذ كيف يترك القرب من السلطان المباشر ليرحل نحو ملك مجهول؟

يقدم الباز تشريحاً صادمًا لشرائع واسعة من النخب الفكرية والسياسية والاجتماعية في المجتمعات الخاضعة للهيمنة:

1. استئناس التبعية: يرى الباز في قيود التبعية (السوار الذي يوضع في قدمه، والغطاء الذي يوضع على عينيه) مبعثاً للفخر والجاه، إنه يحول حالة "الاستعباد الوظيفي" إلى امتياز اجتماعي، مقنعاً نفسه بأنه شريك في السلطة، بينما هو في الحقيقة مجرد أداة صيد يستخدمها المستكبر لبطش غيره.
 2. شرعنة الخنوع: يبرر الباز خنوعه بأن قربته من السلطة يتيح له تحقيق منافع جزئية، مغفلاً حقيقة أنه فقد كرامته وحرية واستقلاليته أهدافه بالكامل.
 3. الخوف من الحرية: تكشف إجابة الهدهد للباز عن وهم هذا الجاه: فالقرب من السلطان الغاشم قرب محفوف بالخطر والدناءة، ومأكله من القتل والطرائد لا يجعل منه ملكاً، بل أجيراً سفيهاً.
- على الجانب الاجتماعي الكلي، تشير مناقشات الطيور إلى الآلية التي تُدار بها مجتمعات الهيمنة والاستكبار، وتستقر هذه المنظومات عبر الافادة من تشتت الشعوب وقبولها بالأمان الكاذب، وإن المنظومة المستكبرة لا تحتاج دائماً إلى استعمال القوة العسكرية المباشرة لتركيبة الشعوب، بل يكفيها زراعة ثقافة العجز وتكثير أعداد النخب التابعة والمستكينين للهوان، حتى تصبح المطالبة بالكرامة الشاملة شذوذاً عن القاعدة ومغامرة غير محسوبة.

ومن هنا، يصبح نص العطار تحذيراً سياسياً ناصعاً: إن التبعية الخارجية والانصياع لقوى الهيمنة لا يتأسسان إلا على قاعدة من التبعية الداخلية الخفية، حيث يفضل الفرد والمجتمع السلامة الرخيصة والجاه الزائف على كلفة الصمود والاستقلال.

الأودية السبعة.. خريطة التحرر والنمو الذاتي

بعد تفكيك الأعدار وإسقاط أقنعة القعود، ينطلق السرب في مساره الحقيقي الذي يتجلى في العبور عبر الأودية السبعة، لا تُقرأ هذه الأودية في نص العطار باعتبارها محطات جغرافية أو أماكن مكانية مجردة، بل بوصفها مساراً تفكيكياً ونفسياً وسياسياً متدرجاً يخوضه الفرد وتخوضه الجماعة للخروج من ربقة التبعية والضعف نحو النضج والكرامة.

أودية (الطلب/العشق/المعرفة/الاستغناء/التوحيد/الحيرة/الفقر والصفاء).

1. وادي الطلب (كسر السلبية والنية الصادقة): هو المحطة الأولى التي تتطلب التخلي التام عن التردد والحيرة الذهنية، وفي هذا الوادي، يُطالب المعني (فصيلاً كان أم مجتمعاً) بالتخلي عن النوايا الشفاهية والتمني المجرد، والانتقال الفوري إلى السعي الميداني والعمل المباشر، وتجاوز حالة الشلل الناتجة عن التفكير المفرط دون خطوة تنفيذية.

2. وادي العشق (تجاوز الحسابات النفعية الضيقة): يمثل العشق هنا الدفع المعنوي والشغف الوقاد الذي يُحرق الحسابات المادية الصرفة، وإن المنظومات المستكبرة تراهن دوماً على إرهاب الشعوب بلغة الأرقام، وموازن القوة الظاهرة، وحسابات الريح والخسارة المادية، يأتي "وادي العشق" ليرسخ فكرة أن معارك التحرر والكرامة لا تُخاض بآلات الحاسبة، بل بإيمان وشغف يغلب الخوف من التضحية.

3. وادي المعرفة (بناء الوعي وإدراك السنن): ليس المقصود بالمعرفة هنا تراكم المعلومات، بل امتلاك البصيرة النافذة وفهم قوانين الواقع وسننه، إن الشعوب التي لا تفهم موازين القوى، ولا تدرك أساليب الهيمنة وأدوات الالتفاف على مطالبها، تقع بسهولة في فخ التضليل، والمعرفة في هذا الوادي هي السلاح الفكري الذي يفكك ألاعيب المستكبرين.

4. وادي الاستغناء (بؤرة التحرر من الهيمنة): يُعد هذا الوادي المركز الثقل المالي والسياسي والنفسي في الملحمة بأكملها، ويُقرر العطار أن لا حرية لأمة ولا كرامة لفرد ما لم يمر بالاستغناء، وإن خنوع المجتمعات للأنظمة الغاشمة أو التبعية للدول المستكبرة يستند في جوهره إلى الحاجة - سواء كانت حاجة اقتصادية، أو معرفية، أو طلب اعتراف وقبول- متى ما امتلك المجتمع القدرة على الاستغناء عن مغريات المستكبر، والزهد فيما يملكه، والتخلي عن الخوف من أدوات حرمانه وبطشه، فقد امتلك حريته الفعلية وكسر حلقة التبعية من جذورها.

5. وادي التوحيد (تجاوز الفردانية وبناء الوعي الجمعي): في هذا الوادي تسقط الفوارق الذاتية، والأنانية الضيقة، والتوجهات الفردانية الشاذة، ويعتمد الاستكبار في فرض سيطرته على قاعدة "فرّق تُسد"، وعلى تمزيق نسيج المجتمعات إلى أحاد معزولة يسهل الاستفراد بها، التوحيد هنا هو ترسيخ الوعي بوحدة الهدف والمصير، وإدراك أن مصلحة الجماعة وصمودها هما السد المنيع الوحيد ضد الهدم.

6. وادي الحيرة (تفكيك المسلّمات وإسقاط الهيئات الزائفة): ليست الحيرة هنا عجزاً أو ضياعاً، بل هي حالة إيجابية من المراجعة النقدية العميقة، إنها اللحظة التي تتكشف فيها للشعوب زيف الهيئات التي صنعها الإعلام أو الأجهزة الغاشمة حول قوة المستكبر التي لا تُقهر، تصاب الطيور بالحيرة لأن المقاييس القديمة التي كانت

تقيم بها الواقع تسقط كلياً، لنتهيأ لدخول مرحلة النضج النهائي.
7. وادي الفقر والصفاء (التجرد الكامل واكتشاف القوة الذاتية): هو الوادي الأخير حيث تتلاشى الأنا الفردية المريضة، ويتجرد السالك من كل إدعاء أو تعلق زاغر، في هذه المرحلة من الصفاء والنقاء، تصبح الجماعة جاهزة لمواجهة الحقيقة الكبرى دون أوهام.

ذروة الملحمة.. تفكيك وَهْم المُخْلِص الخارجي

تصل حبكة الكتاب إلى لحظتها الدراماتيكية الكبرى حين تنتهي الرحلة بعد عبور الأودية الشاقة، لم ينجُ من آلاف الطيور التي انطلقت في البداية سوى ثلاثين طائراً فقط؛ إذ تساقط الضعفاء والمترددون والذين لم يتحملوا كلفة التحرر والاستغناء في أزقة الطريق.

وقف هؤلاء الخَلَص عند أعتاب المقر المأمول، ينفضون غبار الرحلة، ويتطلعون بشغف لرؤية الملك العظيم "السمرغ" الذي خاضوا من أجله كل هذه الأهوال، منتظرين أن يخرج عليهم بصلصول القوة والمنعة ليغير واقعهم ويمسح عنهم سنوات الهوان.

وهنا يفجر العطار مفصل النص الأكثر عمقاً وجراً؛ حيث يُفتح الباب للطيور الثلاثين، فلا يجدون ملكاً يجلس على عرش، ولا كائناً خرافياً يمنحهم الحرية بلمسة ساحرة، حين نظروا إلى العرش، انعكس المشهد أمامهم كمرآة صافية يرون فيها أنفسهم: هم أنفسهم المَلِك، والقوة كانت تكمن في جمعهم وصمودهم ووعيهم الموحد! إن الدلالة اللغوية والفلسفية لهذه اللحظة تتكشف في لغة النص الأصلية (الفارسية): إذ إن كلمة "سي مرغ" تعني حرفياً: ثلاثون طائراً (سي = 30، مرغ = طائر)، وتضع هذه النهاية حداً لأكبر وَهْم تعاني منه المجتمعات والمجموعات الخاضعة للهيمنة، وهو عقدة المُخْلِص الخارجي، مما يترتب على ذلك:

1. سقوط الاتكالية: أعتى ما تزرعه قوى الاستكبار ونظم الاستبداد في وعي الشعوب هو إيهامها بضعفها الذاتي، ودفعها لانتظار فرج يأتي من الخارج، أو من زعيم خارق، أو من ظروف دولية طارئة، فيصرخ النص بأن التغيير والكرامة لا تُمنح من الخارج، بل تُصنع من الداخل.

2. السر في الجمع والوعي: إن السمرغ لم يكن كائناً معزولاً عن الطيور، بل كان هو مجموع القوة والكرامة التي اكتسبتها الطيور عبر خوضها تجربة التطهير والاستغناء والصمود معاً، والقوة لم تكن غائبة، بل كانت مُغيبة تحت ركام الأعذار والتشتت والفردانية.

رؤية نقدية معاصرة ومحاكمة النص

تستدعي القراءة الواعية للكلاسيكيات عدم الوقوع في فخ التمجيد الأعمى أو الرفض الكلي، بل إخضاع النص لمحاكمة نقدية مستقيمة تفصل بين جوهره الإنساني والسني وبين الشطحات الباطنية أو الغلو الصوفي الذي قد يتسرب إليه.

أولاً: تجاوز الباطنية والشطح: قد ينزع بعض المؤولين بنص منطق الطير نحو نزعات باطنية حصرية، تُسقط أحكام الواقع وتعتبر الرحلة مجرد رياضة روحية للهروب من العالم وتهميش الحياة وتأكيد فناء الذات بمفهومه

السلبى، وإن القراءة المعاصرة الواعية ترفض هذا التأويل الخانق؛ فالإنسان لم يُخلق ليفنى سلباً ويستكين، بل ليتحرر ويعمر ويدفع الظلم.

ثانياً: التركيز على السنن الاجتماعية والنفسية: القيمة الحقيقية للعمل تكمن في قدرته على رسم خريطة سننية لتحرر الإنسان والمجتمع؛ فهو يقدم تشريحاً نفسياً لا يبارى لوسائل الدفاع النفسي (فقه الأعدار)، ويضع يده على مكامن الضعف السياسي (استئناس التبعية لدى الباز)، ويرسم شرط الحرية الحقيقي (الاستغناء والوعي الجمعي).

إن محاكمة النص بهذه البصيرة تجعل منه وثيقة حية تُستدعى لإضاءة أزمت الواقع، وتجاوز حالة الشلل الفكري التي تُصاب بها الشعوب حين تستسلم للظروف وتسقط في فخ العجز المكتسب.

خاتمة والتوصيات العملية

لم يكن كتاب منطق الطير لـ فريد الدين العطار مجرد ملحمة شعرية تصاغ للتسلية أو الاستغراق في الجماليات الأدبية، بل هو بيان حاد يواجه الفرد والمجتمع بحقيقة المسؤولية الذاتية عن صناعة المصير، ومن خلال هذه القراءة، يمكن استخلاص بوصلة عملية واستكشافية للاسترشاد والعمل:

1. قطع دابر صناعة الأعدار، والمواجهة الصريحة مع النفس لتشخيص الحيل الدفاعية التي نغطي بها قعودنا عن معالي الأمور (سواء كانت عذر البلب بالشغف السطحي، أو عذر البومة بالخوف من المجهول).
2. بناء الاستغناء الذاتي معرفياً ومالياً، فمن لا يملك قوت يومه أو استقلالية فكره، يسهل ارتهانه وانصياعه لمن يملك وسائل العيش.
3. التخلي عن وهم الاتكال على المُخلّص الخارجي أو انتظار الظروف المثالية؛ إذ إن التغيير سنة اجتماعية تنبع من حركة الداخل وتراكم الوعي.
4. تفكيك هيبة قوى الهيمنة والاستكبار، عبر إدراك أن قوتها الظاهرة تستمد أسبابها من تفرق الضحايا واستسلامهم النفسي قبل المادي.
5. الانتقال من الفردانية العاجزة إلى الوعي الجمعي المؤسسي، فالأفراد المعزولون يُسحقون بسهولة، بينما التكتل الصامد القائم على هدف واحد واستغناء حقيقي هو الذي يصنع السيادة والكرامة.
6. طريق التحرر من الحيرة، والتكاسل، والانصياع للاستكبار لا يبدأ بانتظار معجزة تهبط من السماء، بل يبدأ في اللحظة التي يُقرر فيها الفرد والتجمع خلع أردية البلب والباز والبومة، وخطو الخطوة الأولى بشجاعة نحو وادي الطلب.

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلاً عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتائجته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaydhcenter2011@gmail.com



www.al-faydh.com



العراق - بغداد - الكرادة

